بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 41 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:16\02\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

ما زال البحث في الآية العشرين: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾

والبحث السياقي في هذه الآية المباركة تقدم في البحث السابق، وبقي لدينا أن ندخل في تفصيلات هذه الآية.

مطلع هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ هذه الصيغة والتعبير ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ وألم ترى وما شابه ذلك، في القرآن الكرين لا يقصد منه راءٍ معين. وإنما يستعمل هذا التعبير في الموارد والأحوال التي تكون ظاهرة لكل من يتأتى منه الرؤية، فإذا كان حال الكفار أو حال البشر أو الأشخاص الذي تتناولهم الآية كان في غاية الظهور والوضوح فيستعمل هذا التعبير، ولا يقصد راءٍ دون راءٍ.

وهذا الأمر بشكل عام نص عليه علماء الأدب، وهي أن صيغة الخطاب وإن كانت موضوعة لمخاطب معين، إما مفرد أو مثنى أو جمع، ولكن لا بد أن يكون معيناً؛ لأن الخطاب من المعارف والضمائر، والضمائر من أعرف المعارف، فلا بد أن يكون معيناً.

لكن في كثير من التعبيرات يتجاوز المستعمل التعيين، ويقصد العموم، كما في قول الشاعر:

إِذا أَنتَ أَكرَمتَ الكَرِيمَ مَلَكتَهُ وَإِن أَنتَ أَكرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَّدا[1]

[1] أبو الطيّب المتنبي (303هـ - 354هـ) (915م - 965م) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي أبو الطيب الكندي الكوفي المولد، نسب إلى قبيلة كندة نتيجة لولادته بحي تلك القبيلة في الكوفة لا لأنه منهم. عاش في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب. فيوصف بأنه نادرة زمانه، وأعجوبة عصره. وتدور معظم قصائده حول مدح الملوك.

أنت ليس خصوص مخاطب معين، بل المقصود أن حالة الكريم وحالة اللئيم بارزة وظاهرة لكل أحد لمن تعامل مع الكريم بالإكرام يلقى الإكرام، ومن تعامل مع اللئيم بالإكرام يلقى الجحود؛ لظهور حال هذين.

إذن لا يقصد من الخطاب شخصاً معيناً وإن كانت "أنت" ضمير للمخاطب المفرد، فهنا تدل على العموم.

القرآن الكريم استعمل مثل هذا التعبير، فنلاحظ في سورة الأنعام يقول الباري تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّار﴾[2] بعض المفسرين حمل الخطاب أن المخاطب هو خصوص النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنه استعمل ﴿ترى﴾ التي هي للمخاطب المفرد، والقرآن يخاطب الرسول صلى الله عليه وآله.

لكن بعد الالتفات التي ذكرت، لا يقصد من الخطاب شخص معين، بل كل من يتأتى منه الرؤية يوم القيامة، ويقف على مكان يمون أهل الجحيم بمرأى ومسمع منه ينطبق عليه هذا الأمر، لبروز حالهم وظهوره. إذن هذه الصيغة وهذا التعبير تستعمل في مثل هذه الموارد.

في هذه الآية المباركة: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ هذا المخاطب ليس جماعة معينين؛ لأن كل عاقل لم يختم على قلبه، ولم يتلوث قلبه بالرين، إذا نظر يرى تلك النعم الإلهية السابغة على الإنسان.

وتكمل الآية الشريفة: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ﴾ التسخير يرجع إلى عملية قهر للفاعل، إما قهر تكويني مثل هذا الأكسجين الذي في الهواء، فهو مسخر لنا، هكذا الباري تبارك وتعالى خلق هذه الحياة الدنيا وعلى هذا الأساس. وإما أن يكون تسخيراً تشريعياً، كما أن المولى يسخر عبده عن طريق أوامره ونواهيه. كلها فيها غلبة للفاعل، مرة غلبة تكوينية، ومرة غلبة تشريعية.

الباري تبارك وتعالى في هذه الآية المباركة يتكلم عن الغلبة التكوينية، سخر لنا، وقهر لنا نعم هذا الكون لصالحنا ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ فما في السماوات

---

[2] الأنعام 27

الشمس والقمر وسائر الكواكب، فقد سخرها لنا لكي نستفيد منها، نعرف الليل من النهار وما يترتب على ذلك من آثار. وسخر لنا ما في الأرض من نعم لا تعد ولا تحصى، قهرها لصالحنا.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ هذا التسخير معه قابلية الانتفاع، فحينئذ تتم النعمة، قد يسخر لنا بستان فيه فاكهة، لكن واحد منا يصاب بالشلل، فلا يستطيع هذا أن يمد يده لهذا البستان كي يأكل منه، فلا تكون النعمة سابغة وتامة وكاملة.

الباري سبحانه وتعالى سخر هذه الكائنات وعالم التكوين لنا، وأعطانا الاستعداد لكي نستفيد من هذه النعم ظاهرها وباطنها.

العلامة الطباطبائي هنا يلفت النظر إلى أن تفسير النعم الظاهرة والباطنة تختلف باختلاف المخاطب، فإذا كان المخاطب هم المشركون والكفار فالنعم الباطنة هي العقل والاستعدادات التي جبل عليها الإنسان. فتوجد نعم ظاهرة نشعر بها بواحدة من الحواس، وتوجد نعم باطنة كالعقل والاستعدادات الداخلية للإنسان.

أما إذا كان المخاطب هم أهل الإيمان، فالنعم الباطنية ليست هي العقل، بل العقل يدخل في النعم الظاهرية، النعم الباطنية تكون حينئذ عبارة عن الألطاف الخاصة بخلص عباده، الذي يعبر عنها بالرحمة الرحيمية، لا بالرحمة الرحمانية.

فإذن تفسير النعم الباطنة -أي: تفسير مصداقها وإلا معناها واضح-فإن كان هم أهل الشرك والكفر يختلف المصداق عما لو كان هم أهل الإيمان.

لكن بعد الالتفات إلى نقطتين سابقتين:

النقطة الأولى: ذكرتها قبل قليل في صيغة ﴿ألم تروا﴾ لا يقصد منها مخاطب مخصوص.

النقطة الثانية: ما ذكرته في البحث السابق من الربط السياقي.

فحينئذ هذه الآية الشريفة خطاب للبشرية، ولا يقال: أن أهل الإيمان والتوحيد ليسوا بحاجة إلى ذلك لكونهم من الموحدين، بخلاف أهل الشرك والكفر.

الجواب عن ذلك: أن التأمل في آيات الأنفس والآفاق كما يستفيد منه المشرك والكافر لتحقيق أصل الإيمان والتوحيد، التأمل أيضاً في آيات الأنفس والآفاق يستفيد منه الخواص للتكامل في مراتب الإيمان والتوحيد.

إذن النظر إلى هذه النعم السابغة الظاهرة والباطنة -في الواقع- لا يختص بجماعة دون جماعة. كما أن التخصيص بمصداق معين ليس كما يجب، كل نعمة تكون تحت متناول الإنسان من دون حاجة إلى تأمل هي نعمة ظاهرة، وكل نعمة لا يدركها الإنسان إلى بتأمل تكون نعمة باطنة، وهي فوق حد الإحصاء، فهي تشمل ما كان من قبيل الرحمة الرحيمية، وتشمل ما كان من قبيل الرحمة الرحمانية.

فلغير أهل الاختصاص هناك نعم تجري في أجسامنا لا علم ولا خبر لنا عنها، بل ربما أهل الاختصاص لم يتوصلوا بعد إليها، وهذه النعم رحمة رحمانية لكل البشر، وليست لفئة دون فئة.

إذن تخصيص النعم الباطنية ببعض النعم ليس في محله.

وفي ختام الآية جاء هذا التذييل بعد أن بين الآية الواضحة والباهرة للرجوع إلى التوحيد الحقيقي، ليس الجميع ينتفع من ذلك، وهذا شاهد آخر على أن ﴿ألم تروا﴾ خطاب ليس لفئة مخصوصة، بل لكل من تتأتى منه الرؤية؛ لأنه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ فـ﴿من﴾ للتبعيض، أي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ عندما يرى هذه الآيات الباهرة يؤمن، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾.

فمن الذي يؤمن يكون كالذي تذكره بعض الزيارت والأدعية الشريفة: (وَأَوْرَثَكُمُ الْكِتَابَ وَأَعْطَاكُمُ الْمَقَالِيدَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا خَلَقَ) فالآية ﴿سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما خلق. والنتيجة: (فَعَظَّمْتُمْ جَلَالَهُ وَأَكْبَرْتُمْ شَأْنَهُ وَمَجَّدْتُمْ كَرَمَهُ وَأَدَمْتُمْ ذِكْرَهُ وَتَلَوْتُمْ كِتَابَهُ وَحَلَّلْتُمْ حَلَالَهُ وَحَرَّمْتُمْ حَرَامَهُ وَأَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَأَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ إلخ)[3]

فإذن الخطاب في هذه الآية الشريفة لكل البشرية، ولكل إنسان.

[3] بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج97، ص: 342. زيارة لأمير المؤمنين عليه السلام. وكذا المزار الكبير (لابن المشهدي)، ص: 244.